فصل في إعجاز القرآن وثبوته

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وهذا يقتضينا أن نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثاً عن المعجـزة .

المعجـزة :

المعجزة ظاهرة تكررت في حياة الأنبياء صلوات الله عليهم ، لتكون دليلا على صدق دعواهم النبوة . وقد قص القرآن الكريم علينا كثيرا من أنباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسل الله المتقدمين من أمثال ناقة صالح وعصا موسى وركوبـه البحر وإحيـاء عيسى الموتى ، وإبرائـه الأكمـه والأبرص .

ولا بد في المعجزة من أن تتوافر فيها أمور ثلاثة :

١ ـ أنها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية . ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحـو ما يجري عادة في الحياة .

٢ ـ أنها أمر مقرون بالتحدي ، تحدي المكذبين أو الشاكين ، ولابد أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله ، وإلا فان التحدي لا يتصور ، إذ أننا لا نستطيع أن نتصور بطلا في الملاكمة يتحدى طفلا ، لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته(١) .

---

(١) وفي ذلك رد لزعم النظام من ان العرب سلبوا القدرة على الاتيان بالقرآن مـع امكانهـم ذلك .

٣ ـ انها امر سالم عن المعارضة ، فمتى امكن لأحد ان يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله بطل ان يكون معجزة .

والمعجزة على نوعين : حسية وعقلية .

والملاحظ ان اكثر معجزات الانبياء السابقين كانت حسية بينما نجد ان المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عقلية ، ونعني بهذه المعجزة القرآن ، وهناك معجزات اخرى للنبي صلى الله عليه وسلم جاء في الصحيح اخبارها وهي كثيرة(١)

ولعل مرد ذلك الى ان هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى الى ابد الدهر الى يوم القيامة ، ومن اجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقليةالباقية، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان .

... وهكذا فان معجزات الانبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ قد انقرضت بانقراض اعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، بينما معجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة .

القرآن المعجزة الباقية:

إعجازُ القرآن: إثباتُهُ عجْزَ البَشَرِ عن الإتيانِ بمثلِهِ أو بمثلِ بعضِه، في ألفاظِهِ ومعانيهِ.

وهذه الخَصوصيَّةُ جعلَت القرآنَ أعظَمَ الأدلَّةِ على صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ في رِسالتِهِ، والحُجَّةَ الباقيَةَ على النَّاسِ إلى أن تَقومَ السَّاعةُ.

قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عليهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ؟ قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ اللَّهِ، وإنَّما أنَا نَذِيرٌ مُبينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ؟ إنَّ في ذٰلكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وَعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي اللَّهُ عنه، قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ:

«ما مِنَ الأنبياءِ نَبيٌّ إلَّا أعطِيَ ما مثْلُهُ آمَنَ عليهِ البَشَرُ، وإنَّما كانَ الَّذي أوتِيتُ وَحياً أوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابعاً يومَ القيامَةِ»[1].

وَقَدْ كانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ يُجري على أيدي رُسُلِهِ وأنبيائِهِ ويَسوقُ لهم من البراهينِ ما يدلُّ على صدقِهم أنَّهم مَبعوثونَ من عندِ اللَّه، ممَّا لا يقعُ مثلهُ في العادةِ لغَيرهم من البشَر، وهو معجِزاتُهُم، كعَصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، والإسراء والمعراج لنبينا ﷺ، لكنَّ تلك المعجِزاتِ كانت أدلَّةً لمن شَهِدَها، ونَصيبُ مَن لم يَشْهَدْها إنَّما هو الخَبرُ الواجبُ التَّصديق، بخلافِ القرآن، فإنَّه المعجزةُ الباقيةُ، الَّتي لم تَزَلْ حيَّةً بينَ النَّاسِ، لم يتبدَّل ولم يتغيَّرْ، ولن يكونَ ذلكَ في يومٍ من الدَّهرِ.

تحدَّى اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ أربابَ الفَصاحةِ والبَيانِ، بل جَميعَ بني الإنسانِ، بل حتَّى لو ظاهَرَهُم عليه الجانُّ، ولم يزل يتحدَّى: أن يأتوا بمثْلِ هذا القرآن،

---

(١) حديثٌ صَحيحٌ.

متَّفق عليه: أخرَجهُ البُخاريُّ (رقم: ٤٦٩٦، ٦٨٤٦) ومسلمٌ (رقم: ١٥٢).

أو بمثْلِ بعْضِهِ، فما فعَلُوا، ولن يفعَلوا.

كما قالَ جَلَّ وعَلا: ﴿قُل لَئِنِ ٱجتَمَعَت الإنْسُ والجِنُّ علىٰ أن يأتُوا بمِثْلِ هٰذا القـرآنِ لا يأتونَ بمِثْلِـهِ ولَوْ كـانَ بعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [الإسْراء: ٨٨]، وَقـالَ عَـزَّ وجـلَّ: ﴿أَمْ يقـولـونَ ٱفتَراهُ، قُلْ فأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفتَرَياتٍ وَٱدْعُـوا مَـن ٱستَطَعْتُمْ من دونِ اللَّهِ إن كُنْتُـمْ صـادِقينَ * فإن لم يَسْتَجِيبـوا لكُمْ فَٱعْلَمُـوا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْـمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٣-١٤]، وقـالَ سُبحـانَـهُ: ﴿وإن كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نزَّلْنا علىٰ عَبْـدِنا فأتُوا بِسُـورةٍ مِن مِثْلِهِ وَٱدْعُـوا شُهَـداءَكُمْ مِـنْ دُونِ اللَّه إن كُنْتُمْ صـادقينَ * فإن لم تفْعَلوا وَلَنْ تَفعَلوا فٱتَّقُـوا النَّارَ الَّتي وَقُـودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ، أعِـدَّتْ لِلْكَافِـرينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

تحدَّاهُم بأن يأتُوا بأقصَرِ سُـورَةٍ مـن مثلِهِ، علىٰ مِثـالِهِ في النَّظْمِ والتَّأليف والإحْكامِ، وفي المعـاني والدَّلالاتِ والأحكامِ، فعَجَـزوا عن معارَضَتِـهِ في كُلِّ ذلكَ، عن مُماثلتِـه بعباراتِهِم، أو مُجاراتِـهِ ببيانِهِم، أو مُسـابقتِهِ بقَـوانينِهم وشَرائعِهِم.

ذٰلكَ؛ لأنَّه كلامُ ربِّ العالَمين تَبارَكَ وتعالىٰ، وكلامُهُ سُبْحانَه من صفاتِهِ، وهو الَّذي لا مِثْلَ له في ذاتِـهِ ولا في صِفـاتِهِ، كما قـال: ﴿لَيْسَ كمثْلِهِ شيءٌ، وهو السَّميعُ البَصيرُ﴾ [الشُّورىٰ: ١١]، فكما لا مِثْـلَ له في سَمْعِهِ، ولا مِثْلَ لهُ في بَصَرِهِ، وَلا مِثلَ لهُ في سائرِ صِفاتِهِ، فكذٰلكَ لا مثْلَ له في كلامِهِ.

فهـذه - واللَّه - هي العلَّةُ الَّتي فارَقَ بها كـلامُهُ سـائرَ الكلامِ، وعجَـزَ لأجْلِهِ الخلقُ عن معـارَضَتِهِ، فليسَ كشِعْـرِهِم ولا كنثرِهم، ولا كقـوانينِهم وشَرائِعِهم، مع أن حُـروفَـهُ من حروفِ كـلامِهِم، ومفـرداتِهِ من مفـردات قـامـوسِهِـم، فلم يجدوا له في ألسنتِهم مع الفَصـاحَـةِ، ولا في عقـولِهِم مع الرَّجـاحَةِ، مـا يمكنُهُم به أن يأتوا بمثلِ أقصَرِ سـورةٍ منه، فقد أبَت قـوانينُ الشِّعْرِ وأساليبُ النَّثرِ ولوائحُ الأنظِمَةِ أن يُقايَسَ بها ويجري عليها.

﴿وَمَا كانَ هٰذا الْقُـرآنُ أن يُفْتَرىٰ مِن دُونِ اللَّهِ، وَلٰكِن تَصْديقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصيلَ الْكِتـابِ لَا رَيْبَ فيـهِ مِن رَبِّ العالَمينَ * أمْ يَقـولُونَ ٱفْتَراهُ؟ قل فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱستَطَعْتُم مِن دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُم صَادِقينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأتِهِم تَأويلُهُ ...﴾ [يونُس: ٣٧-٣٩].

* القدر المعجز من القرآن الكريم

نستطيع ان نلخص ـ فيما يأتي ـ الأمور التي لا بد من معرفتها في موضوع الإعجاز :

١ ـ قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء .

٢ ـ الإعجاز في اسلوب القرآن ونظمه وبيانه . وخصائصه الفنية مباينة للمعهود من خصائص البيان البشري .

٣ ـ ما في القرآن من إخبار بالغيب وحديث عن الماضي بدقائقه وتفصيلاته ، وإخبار بدخائل النفس واسرارها ، وكشف عن حقائق علمية وكونية ، وإحكام في التشريع يضمن مصالح الناس .. كل ذلك بمعزل عن

هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على أنه من عند الله ، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين . (١)

٤ ـ العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة ، ولديهم القدرة على تمييز ما كان من كلام البشر ، وما ليس من كلامهم ، وقد أدركوا أنهم بالتحدي طولبوا بأن يأتوا بمثل هذا الكلام .

٥ ـ إن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثل معاني القرآن ، بل قصد أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر .

٦ ـ هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة وموجه الى الثقلين أيضا .

٧ ـ واخيراً فإن العرب الذين نزل عليهم هذا القرآن كانوا يحسون بجماله ويدركون إعجازه ، واستمر الأمر كذلك جيلين من الناس الى ان داخلت العجمة سواد الناس فافسدت سلائقهم ، وبدأت العلوم والمعارف الدخيلة تتسرب إلى حياتهم ، وقام دجالون مغرضون يريدون تشويه حقيقة الإسلام وكان من هؤلاء الجعد بن درهم (٢) ، ثم جاء النظام ابراهيم بن سيار فقال بالصرفة . ورد عليه الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » .

وقد أكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن ، ولذلك فإن عدداً من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربي كتبوا في ذلك من امثال الإمام عبد القاهر الجرجاني (٣) والرازي (٤) والزملكاني (٥) .

* * *

---

(١) انظر مقدمة الاستاذ محمود شاكر لكتاب « الظاهرة القرآنية » .

(٢) هو مبتدع له آراء ضالة وذكره بعضهم في الزنادقة . قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨ هـ .

(٣) هو الامام الكبير واضع أسس البلاغة ، والذواقة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

(٤) هو محمد بن عمر التيمي البكري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير .

(٥) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١ هـ .

وقد بقي من الكتب المؤلفة في القرنين الرابع والخامس عن إعجاز القرآن : كتاب الرماني وهو « النكت في إعجاز القرآن » (١) ومؤلفه هو علي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٤ هـ ، وكتاب الخطابي وهو « بيان إعجاز القرآن »(١) ومؤلفه هو حمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتاب الباقلاني وهو « إعجاز القرآن »(٢) ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن الطيب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

هذا وإن مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن وسمو بيانه موضوع ترجمة القرآن والحق في هذه المسألة التي كثر الأخذ والرد فيها ان نقرر ان ترجمة القرآن أمر مستحيل . لأن أي نص بليغ تتعذر ترجمته في أي لغة من لغات الأرض فما القول بالكلام الآلهي المعجز ؟

اما تفسير معاني آياته بغير اللغة العربية فأمر لا مانع منه، بل إنه واجب، ولكنه لا يسمى قرآنا بحال من الأحوال .

---

(١) طبع هذا الكتاب في دار المعارف بمصر تحت عنوان « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .

(٢) طبع أكثر من مرة ، وحققه أخيرا السيد صقر .

أنواع الإعجاز في القرآن:

يعْسُرُ أن تُحدَّ وجوهُ الإعجازِ في القرآنِ العَظيم، فكلُّ شيءٍ منهُ لا نَظيرَ له، فهو باهِرٌ في ألفاظِهِ وأُسلوبِهِ، في تأليفِهِ ونَظْمِهِ، في بيانِهِ وبلاغتِهِ، في تشريعِهِ وحِكَمِهِ الَّتي حيَّرَت الألبابَ، في أنبائِهِ وأخبارِهِ، في تاريخه وحفظِهِ، في عُلومِهِ الَّتي لا تنقطِعُ ولا تقفُ عندَ غايةٍ.

وقد أجْمَلَ وَصْفَهُ وأحْسَنهُ مَن قالَ:

«فيهِ نبأُ ما قبلَكُم، وخَبَرُ ما بَعْدَكُم، وحُكْمُ ما بينكُم، وهُوَ الفَصْلُ ليسَ بالهَزْلِ، مَن ترَكَهُ من جبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، ومَن ٱبتَغىٰ الهُدَىٰ في غيرِهِ أضلَّهُ اللَّهُ، وهُوَ حبلُ اللَّهِ المتينُ، وهُوَ الذِّكْرُ الحَكيمُ، وهُوَ الصِّراطُ المستَقيمُ، هُوَ الَّذي لا تَزِيغُ بِهِ الأهْواءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الألْسِنَةُ[٢]، وَلا يَشْبَعُ منهُ العُلَماءُ،

---

(٢) هذا وَصفٌ عَجيبٌ، وسِمَةٌ خاصَّةٌ لهذا القرآنِ العَظيم، فإنَّه تَتلوهُ ألسِنَةٌ لم تُفتَق بالعربيَّة، بل ربَّما تعسَّرَ عليها قراءةُ سواهُ من الكلامِ العربيِّ، أمَّا هوَ فتنطلقُ به الألسنة مع عُجمَتِها، ﴿ولقد يسَّرنا القرآنَ للذِّكرِ﴾، وهذا رأيناهُ وشَهِدناهُ.

ولا يَخْلَقُ على كَثـرَةِ الرَّدِّ[1]، وَلا تَنْقَضي عَجـائبُـهُ، هوَ الَّذي لم تَنتَـهِ الجِنُّ إذْ سَمِعَتْـهُ حتَّىٰ قالُـوا: ﴿إنَّا سَمِعْنا قرآناً عَجَباً * يَهْدِي إلىٰ الرُّشْـدِ﴾ [الجِنّ: ١-٢]، مَن قالَ بهِ صَدَقَ، ومَن عَمِلَ بهِ أُجِرَ، ومَن حَكَمَ بهِ عَدَلَ، ومَن دَعا إليهِ هُدِيَ إلىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ»[2].

والتَّنبيهُ هٰهُنا علىٰ أربعَةِ أنواعٍ للإعْجازِ القرآني:

النَّوعُ الأوَّل: الإعجاز اللُّغويُّ:

هٰذا النَّوعُ هو أبرزُ مـا تحدَّىٰ به القـرآنُ العَرَبَ في حيـاةِ النَّبيِّ ﷺ، وهوَ التَّحدِّي في أبرَزِ خَصائصهِم، فمعَ أنَّه بلِسانِهِمْ، وأتىٰ بما لا يخرُجُ عن وُجوهِ فصـاحتِهِمْ وأسـاليبِ بيـانِهِمْ، وهم يومئذٍ في الـذِّروَةِ في ذلكَ نثـراً ونَظْماً،

---

(١) أي لا يأتي عليه التكرارُ بذهابِ لذَّتِه، بل هو في كل مرَّةٍ جَديدٌ، مهما تكرَّرت تلاوتُهُ، وليسَ كذلكَ سائرُ الكلامِ.

(٢) رُوِيَ هذا حديثاً مرفوعاً إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ولا يصحُّ.

فأخرَجَه ابنُ أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢) وأحمد (رقم: ٧٠٤) والدَّارمي (رقم: ٣٢١١) والتِّرمـذيُّ (رقم: ٢٩٠٦) والنَّسـائيُّ في «مسند عليٍّ» - كما في «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٢٦٧) - وغيرهم، من طـريق الحارث بن عبـدالله الأعـوَر، عن عليِّ بن أبي طالبٍ، به.

قال التِّرمذيُّ: «إسنادُهُ مجهولٌ، وفي الحارث مَقالٌ».

قلت: التَّحقيقُ أنَّ علَّته ضَعْفُ الحارثِ، ومـا أشارَ إليه التِّرمـذيُّ من الجهالة زائلٌ أثرُها بالمتابعة، والأشبَـهُ أن يكونَ هذا من كلامِ أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ، أخطأ الحارثُ في رفعِهِ.

لكنَّهم عجَزوا عن مُعارضَتِهِ ولو بسورةٍ من مثلِهِ، فصارُوا يتخبَّطونَ، فتارةً يقـولونَ: (هو شعـرٌ)، وتـارةً: (قَـوْلُ كـاهنٍ)، وتارةً: (أسـاطيرُ الأوَّلين)، لا يثبُتُونَ علىٰ شيءٍ؛ لأنَّهُم يعلَمونَ أنَّه ليسَ كما يقولونَ، وما كانَ لهم ليغفلوا عن صفـةِ الشِّعْرِ ولا صيغَـةِ النَّثر، وهـم أهلُ ذلكَ وعَباقـرتُهُ، وإنَّما شأنُهُم شأنُ مَن قالَ اللَّهُ فيهِم: ﴿فلمَّا جاءَتْهمْ آياتُنَا مُبْصِرَةً قالُوا: هذا سِحْرٌ مُبينٌ * وَجَحَدُوا بِها وَٱستَيْقَنَتْها أنفُسُهُم ظُلْماً وعُلُوًّا﴾ [النَّمل: ١٣-١٤].

وهكذا قـالَ أولئكَ المشركـونَ عـن القـرآنِ: ﴿هٰذا سِحْـرٌ مُبينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]، وقالُوا: ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَراهُ وَأعـانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرونَ، فقَدْ جاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقالُوا أَساطيرُ الأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَها فهيَ تُمْلَىٰ عليهِ بُكْرَةً وَأصيلاً﴾ [الفرقان: ٤-٥]، وقالُوا: ﴿أَضْغـاثُ أَحْلامٍ، بل ٱفْتَراهُ، بل هُوَ شاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

فهوَ سبيلُ من سبَقَ، وحُجَّةُ من لا بُرهانَ له، ﴿كَذٰلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ من رَسُولٍ إلَّا قالُوا سـاحِرٌ أو مَجْنونٌ﴾ [الذَّاريات: ٥٢]، ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفرُوا بالـذِّكْرِ لَـمَّـا جـاءَهُم، وإنَّه لَكِتابٌ عَـزيزٌ * لا يَأتِيهِ الْبـاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِن خَلْفِـهِ، تَنْزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميـدٍ * مـا يُقالُ لَكَ إلَّا مـا قـد قيلَ للرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فُصِّلَت: ٤١-٤٣].

أعيَتْهُم الحِيَلُ، وضـاقَت بِهِم السُّبُلُ، فلجأُوا إلىٰ وصْفِ القـرآنِ بما لا يشكُّونَ لو أنصفُوا أنَّهُم فيه مُبْطِلونَ، لكن أعمَتْهُم الأهواءُ فأنَّىٰ يُبْصِرونَ.

﴿فذكِّرْ فما أنْتَ بنِعْمَةِ رَبِّكَ بكاهنٍ وَلا مَجْنونٍ * أمْ يَقولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فإنِّي مَعَكُم مِنَ المتربِّصينَ * أم تأمُرُهُمْ أحْلامُهُم بهٰذا؟ أمْ هُمْ قومٌ طاغُونَ * أمْ يقولُونَ: تقوَّلَهُ؟ بل لا يُؤمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بحَديثٍ مِثْلِهِ إن كانُوا صَادِقينَ﴾ [الطُّور: ٢٩-٣٤].

ويبقىٰ القرآن يتحدَّىٰ ولا يَرجِعُ الكفَّارُ جواباً، ﴿فإن لم يَسْتَجيبُوا لَكُم فاعْلَمُوا أنَّما أنزِلَ بعِلْمِ اللَّهِ، وأن لا إلٰهَ إلَّا هُوَ، فهَلْ أنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وأنَّىٰ لهُم الجوابُ، واللَّهُ يقولُ وهُوَ أعلَمُ بهِم: ﴿ولَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤].

قالَ الأديبُ الرَّافعيُّ: «فقطَعَ أنَّهُم لن يفعَلُوا، وهيَ كلمةٌ يَستحيلُ أن تكونَ إلَّا من اللَّهِ، وَلا يقولُها عَربيٌّ في العَرَبِ أبداً، وقد سَمِعُوها وَاستقرَّت فيهِم ودارَت علىٰ الألْسِنَةِ، وعَرَفُوا أنَّها تَنفي عنهُم الدَّهْرَ نفياً، وتُعْجِزُهُم آخِرَ الأبَدِ، فما فعَلُوا ولا طَمَعُوا أن يفْعَلُوا، وطارَت الآيَةُ بعَجْزِهِم وأسْجَلَتْهُ عليهِم ووَسَمَتْهُم علىٰ ألْسِنَتِهِمْ، فلمَّا رأوْا هِمَمَهُمْ لا تَسْمو إلىٰ ذٰلكَ، ولا تُقارِبُ المَطْمَعَةَ فيهِ، وقد انقَطَعَتْ بهم كلُّ سبيلٍ إلىٰ المعارَضَةِ، بذلُوا له السَّيْفَ، وانصَرَفوا عن توهُّنِ حُجَّتِهِ إلىٰ تهوينِها علىٰ أنفُسِهِم بكلامٍ من الكلامِ، فقالُوا: ساحرٌ، وشاعِرٌ، ومجنونٌ، ورجُلٌ يكتَتِبُ أساطيرَ الأوَّلينَ، وإنَّما يعلِّمُهُ بَشَرٌ، وأمثالُ ذلكَ، مِمَّا أخِذَت به الحُجَّةُ عليهم، وكانَ إقراراً منهُم بالعَجْزِ، إذ جنَحُوا فيهِ إلىٰ سياسَةِ الطِّباعِ والعاداتِ»[1].

(١) إعجاز القرآن، لأديب الإسلام مصطفىٰ صادق الرَّافعي (ص: ١٧٠).

وإنَّما حالُهُم كما قالَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لكَ الأمْثالَ، فَضَلُّوا، فلا يَسْتَطيعُونَ سَبيلاً﴾ [الفرقان: ٩].

ثُمَّ إنَّ هٰذا القرآنَ قد ٱشتَمَلَ من القاموسِ العَربيِّ علىٰ أحسَنِ الكلماتِ وأفْصَحِها، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الْحَديثِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، أمَّا في تركيبِ جُمَلِهِ، وتَناسُقِ عِباراتِهِ، ومَقاطِعِ آياتِه، فهو الفَرْدُ الَّذي لا نَظيرَ له.

﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عَربيًّا لقومٍ يَعْلَمونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا للنَّاسِ في هٰذا القرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لعَلَّهُم يتَذَكَّرُونَ * قرآناً عَربيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لعلَّهُم يتَّقونَ﴾ [الزُّمر: ٢٨].

فكم تُرَىٰ يكونُ في الكلامِ من المعاني أو البَيانِ أو البَديعِ، فإنَّ القرآنَ في ذِروَةِ ذلكَ، بل به عُرِفَ كلُّ ذلكَ، فما وُضِعَتْ علومُ البلاغَةِ إلَّا بسَببِهِ، طَريقاً إلىٰ فَهْمِهِ، وإبْرازاً لعَظيمِ قدْرِهِ، وتأصيلاً ليُبْنَىٰ سائرُ الكلامِ علىٰ قاعدَتِهِ وَنَهْجِهِ.

وأهْلُ التَّفسيرِ في القديمِ والحديثِ يراعُونَ هٰذهِ الخَصوصيَّةَ للقرآنِ، فلم يتكلَّم أحدٌ في تفسيرِ هذا الكتاب وبيانِ دلائله ومَعانيهِ من لَدُن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ وإلىٰ اليومِ إلَّا وهو يراعي الجوانِبَ البلاغيَّةَ فيهِ، وأسرارُ ذٰلكَ لا تَنتَهي، ولَن تَنتَهيَ.

﴿وَلَوْ كانَ مِن عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ ٱخْتِلافاً كَثيراً﴾ [النِّساء: ٨٢].

النَّوعُ الثَّاني: الإعجازُ الإخباريُّ:

وهٰذا هوَ الإعْجازُ فيما تضمَّنَهُ القرآنُ من الأنباءِ، وهوَ أربعةُ أشياءَ:

أوَّلُها: الإخبارُ عن الغَيبِ المطْلَق، كالخبَرِ عن اللَّهِ عزَّ وجَلَّ وأسمائِهِ وصِفاتِهِ، والملائكةِ، وصِفَةِ الجنَّةِ وصِفَةِ النَّارِ.

وقد أتىٰ القرآنُ في هذا الأمْرِ بما لا يُدْرِكُهُ بَشَرٌ من تِلْقاءِ نَفْسِهِ، إذ طَريقُهُ لا يكونُ من جِهَةِ العُقولِ، إنَّما طَريقُهُ السَّمْعُ الَّذي ﴿لا يأتيهِ الباطِلُ مِن بينِ يدَيْهِ وَلا مِن خَلْفِهِ، تَنْزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢].

وثانيها: الإخبارُ عن الأمورِ السَّابقةِ، كالخبَرِ عن بَدْءِ الخَلْقِ، وعن الأمَمِ السَّالفةِ.

وقَدْ قَصَّ علينا القرآنُ مِن ذٰلكَ عَجَباً، وأتىٰ من الأنباءِ بما لم يَمْلِكْ المُنصِفونَ من أهلِ الكِتابِ والعِلْمِ إلَّا تصديقَهُ، كما قالَ اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقالَ تعالىٰ: ﴿قُلْ أرأَيْتُم إن كانَ مِن عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن بَني إسْرائيلَ علىٰ مِثْلِهِ، فآمَنَ وَٱستَكْبَرْتُم﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وإنَّهُ لَتَنْزيلُ رَبِّ الْعالَمينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ * علىٰ قَلْبِكَ لِتكونَ مِنَ المُنْذِرينَ * بِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ * وإنَّهُ لَفي زُبُرِ الأوَّلينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَني إسْرائيلَ﴾ [الشُّعراء: ١٩٢-١٩٧].

فجاءَ ما آتاهُ اللَّهُ مِن ذٰلكَ تَصديقاً لِما بينَ يَدَيْهِ، وما تعلَّمَ من أحَدٍ من

إنْسٍ ولا جِنٍّ، ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إذاً لارْتابَ المُبْطِلونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿وَكَذٰلِكَ أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِن أمْرِنا، ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتابُ وَلا الإيمانُ﴾ [الشُّورىٰ: ٥٢].

﴿إنَّا أنْزَلْناهُ قُرآناً عَرَبيًّا لعَلَّكُم تَعْقِلونَ * نَحنُ نَقُصُّ عليْكَ أحْسَنَ القَصَصِ بِما أوْحَيْنا إليكَ هٰذا القرآنَ، وإن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلينَ﴾ [يوسُف: ٢-٣].

فقصَّ اللَّهُ سُبحانَهُ قصَّةَ نوحٍ، ثُمَّ قالَ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿تِلْكَ مِن أنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيها إلَيْكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قبلِ هٰذا﴾ [هود: ٤٩].

وفصَّلَ قصَّةَ يوسُفَ، ثُمَّ قالَ: ﴿ذٰلِكَ مِن أنْباءِ الغَيْبِ نوحِيهِ إليكَ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِم إذْ أجْمَعُوا أمْرَهُم وهُم يمْكُرونَ﴾ [يوسُف: ١٠٢].

وقصَّ طَرَفاً من نَبَأِ موسىٰ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَما كُنْتَ بجانِبِ الغَربيِّ إذْ قَضَيْنا إلىٰ موسىٰ الأمْرَ وما كُنْتَ مِنَ الشَّاهدينَ * وَلٰكنَّا أنْشأنا قُروناً فتَطاوَلَ علَيْهِمُ العُمُرُ، وَما كُنْتَ ثاوياً في أهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عليهِمْ آياتِنا، ولٰكنَّا كُنَّا مُرْسِلينَ * وَما كُنْتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا، ولٰكن رَحمَةً مِن ربِّكَ﴾ [القَصص: ٤٤-٤٦].

وقالَ بعدَ ذكْرِ قصَّةِ مريمَ: ﴿ذٰلِكَ من أنْباءِ الغَيْبِ نوحِيهِ إليكَ، وَما كُنْتَ لدَيْهِمْ إذْ يُلْقونَ أقْلامَهُم أيُّهُم يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لديهِم إذْ

يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ما أعظَمَها مِن مِنَّةٍ يمتَنُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها علىٰ نَبيِّه ﷺ! وَما أعظَمَها من مُعْجِزَةٍ خرَقَت جميعَ قوانينِ الخَلْقِ في التَّعلُّم والتَّلقِّي! يبلُغُ ﷺ الأربعينَ من عُمُرِهِ وهوَ بينَ قومِهِ، يعرفونَه بالأُمِّيَّةِ، لا يقرأُ ولا يكتُبُ، ولم يَعْرِفوهُ بمُجالَسَةِ مُعلِّمٍ، ثُمَّ يظهَرُ للنَّاسِ بِما لا طاقَةَ لهُم بمِثْلِه.

وحينَ افتَرَوا فقالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، قالَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِيٌّ، وهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النَّحل: ١٠٣].

ويَسْتَمِرُّ التَّحدِّي، فيجعَلُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ مِن الواقِعِ المُشاهَدِ دليلاً علىٰ صِدْقِ ما جاءَ بِهِ نبيُّهُ ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبوكَ فقَدْ كَذَّبَت قَبْلَهُم قومُ نوحٍ وَعادٌ وَثَمودُ * وقَوْمُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ * وَأَصْحابُ مَدْيَنَ، وكُذِّبَ موسىٰ، فأَمْلَيْتُ للكافرينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُم، فكيفَ كانَ نكيرِ * فكأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْناهَا وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ علىٰ عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فتكونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها، أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها؟ فَإِنَّها لا تَعْمَىٰ الأَبْصارُ وَلٰكِن تَعْمَىٰ القُلوبُ الَّتي في الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٦].

وثالثُها: الإخبارُ عمَّا يكونُ في مُسْتَقْبَلِ الزَّمانِ، كالإخبارِ عن الشَّيءِ قبلَ وقوعِهِ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ، أو عَمَّا سيكونُ بعْدَ ذٰلكَ.

كما في قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أَدْنَىٰ الأَرْضِ، وهُم

مِن بَعْـدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُـونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ، للَّـهِ الأَمْـرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْـدُ، ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ * بنَصْرِ اللَّهِ، ينصُرُ مَن يَشـاءُ، وهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الرُّوم: ١-٥].

وقـد صحَّت الرِّوايةُ بتحقُّقِ مـا أخبرَت بهِ هٰذهِ الآياتُ عن غير واحـدٍ من أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، فمن ذلكَ حديثُ نِيارِ بنِ مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ، قالَ:

لَمَّا نَزَلَت ﴿الـمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أدْنَىٰ الأرْضِ، وهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُـونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ فكانَت فـارسُ يومَ نزلَـت هٰذهِ الآيةُ قـاهرينَ للرُّومِ، وكـانَ المسلِمـونَ يُحِبُّـونَ ظُهـورَ الرُّومِ علَيْهِـمْ؛ لأنَّهُم وإيَّاهُم أهْلُ كِتـابٍ، وفي ذٰلكَ قـولُ اللَّهِ تعـالىٰ: ﴿ويَوْمَئِذٍ يَفْـرَحُ المُؤْمِنُونَ * بنَصْرِ اللَّهِ، ينصُرُ مَن يَشاءُ، وهُوَ العَـزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فكانَت قُريشٌ تُحِبُّ ظُهـورَ فارِسَ؛ لأنَّهُم وإيَّاهُم لَيسُـوا بأهْلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعْثٍ، فلمَّا أنزَلَ اللَّهُ تعـالىٰ هٰذهِ الآيَةَ، خرَجَ أبو بكرٍ الصِّـدِّيقُ يَصيحُ في نواحي مكَّةَ: ﴿الـمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أدْنَىٰ الأرْضِ، وهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُـونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، قالَ ناسٌ من قُـريشٍ لأبي بكرٍ: فـذٰلكَ بيننـا وبينكُم، زعَمَ صـاحِبُكُم أنَّ الرُّومَ ستغْلِبُ فارساً في بِضْعِ سِنينَ، أفَلا نُراهِنُكَ علىٰ ذٰلكَ؟ قالَ: بَلىٰ، وذٰلكَ قبلَ تحريمِ الرِّهانِ، فأرتَهَنَ أبو بكرٍ والمشركـونَ وتواضَعُوا الرِّهانَ، وقـالُوا لأبي بكرٍ: كَم تجعَـلُ البِضْعَ ثَلاثَ سِنينَ إلىٰ تِسْعِ سِنينَ، فَسَمِّ بيننـا وبينكَ وَسَطاً تَنتَهي إليهِ، قـالَ: فَسَمَّوا بينَهُم ستَّ سِنينَ، قـالَ: فمضَت السِّتُ سِنينَ قبلَ أن يظْهَـرُوا، فأخـذَ المشرِكـونَ رَهْنَ أبي بكرٍ، فلمَّا دخَلَت السَّنَةُ السَّـابعـةُ

ظَهَرَت الرُّومُ علىٰ فارِسَ، فعـابَ المسلِمونَ علىٰ أبي بكرٍ تسميةَ سِتِّ سنينَ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالىٰ قالَ: ﴿في بِضْعِ سِنينَ﴾، قالَ: وأسْلَمَ عندَ ذٰلكَ ناسٌ كثيرٌ[1].

كذٰلكَ مـا تضمَّنهُ القرآنُ من الإخبارِ عن أشراطِ السَّاعَـةِ، والبعْثِ بعدَ الموتِ، والحَشْرِ والحِسـابِ، والمصيرِ إلىٰ الجنَّةِ أو إلىٰ النَّارِ، بِما لا سَبيلَ للبَشَرِ إلىٰ معرفتِهِ إلَّا بوَحيِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، جميعُهُ بُرهانٌ علىٰ أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّه.

ورابِعُهـا: الإخبـارُ عمَّا تُكنُّهُ النُّفوسُ وتُخفيـهِ الضَّمائـرُ، ممَّا لا يُمكِنُ أن يَعْلَمَه إلَّا اللَّهُ، ولا يصِلُ إلىٰ علمِ النَّبيِّ ﷺ إلَّا بوَحي اللَّه.

كالَّذي تراهُ في سورَةِ التَّـوبةِ من ذكْرِ أسرارِ المنافقينَ، حتَّىٰ خافَ النَّاسُ أن ينزِلَ القرآنُ بأسمائِهِم يُظْهِرُ حقائقَ ما في نفوسِهِم.

كما قالَ سَعيدُ بنُ جُبيرٍ: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: سـورَةُ التَّوبَة، قالَ: آلتَّوبَة؟، قالَ: بل هيَ الفاضِحَةُ، ما زالتْ تَنْزِلُ: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾، حتَّىٰ ظَنُّوا أن لا يَبقَىٰ مِنَّا أحَدٌ إلَّا ذُكِرَ فيها[2].

---

(١) حَديثٌ حَسَنٌ.

أخـرَجَـهُ التِّرمـذيُّ (رقـم: ٣١٩٤) والطَّحـاويُّ في «شرح مشْكِـل الآثار» (٧/ ٤٤٢-٤٤٣) من طَريقِ عبـدالرَّحمٰن بن أبي الزِّنـادِ، عن أبي الزِّنادِ، عن عُـرْوَة بن الزُّبير، عن نِيارٍ، به.

قلت: وإسنادُهُ حَسَنٌ، وقالَ التِّرمذيُّ: «حَديثٌ حَسنٌ صَحيحٌ».

(٢) حَديثٌ صَحيحٌ.

متَّفقٌ عليه: أخرَجَه البُخاريُّ (رقم: ٤٦٠٠) ومسلم (رقم: ٣٠٣١).

النَّوعُ الثَّالث: الإعجازُ التَّشريعيُّ:

ويكمُنُ فيما أودَعَ اللَّه في كِتابِه من القوانينِ الَّتي تَشْهَدُ في آستقامتِها وعَدْلِها وصَلاحِها لكُلِّ زَمانٍ أنَّها من عندِ اللَّهِ، وأن لا طاقةَ للخَلْقِ أن يوجِدُوا لها نَظيراً، مَهما بَلَغَت العُقولُ.

ذٰلكَ أنَّ التَّشريعَ مَبنيٌّ علىٰ تحقيقِ مصالحِ العِبادِ في الدَّارينِ، ولا يُحيطُ بتلْكَ المصالحِ أحَدٌ من خلْقِ اللَّهِ؛ لقُصورِ العِلْمِ، والنَّقْصِ بالطَّبْعِ، لٰكنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ هوَ الخالقُ، فهُوَ أعْلَمُ بخَلْقِهِ وحاجَتِهِم وما يكونُ بهِ صَلاحُهُم وفَسادُهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ من خَلَقَ، وهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فلِذا جاءَ تَشريعُه موصوفاً بالحُسْنِ المُطْلَقِ وبالحَقِّ المطْلَقِ، كما قالَ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لقَوْمٍ يوقِنونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقالَ: ﴿وَلا يأتونَكَ بمَثَلٍ إلَّا جِئناكَ بالحَقِّ وأحْسَنَ تفسيراً﴾ [الفرقان: ٣٣]، وقالَ تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذي أنْزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ والميزانِ﴾ [الشُّورىٰ: ١٧]، وقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إنَّا أرْسَلْناكَ بالحَقِّ بَشيراً ونَذيراً﴾ [البقرة: ١١٩]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَّبَ بهِ قومُكَ وَهُوَ الحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَبالحَقِّ أنْزَلْناهُ وبالحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقالَ عَزَّ وجلَّ: ﴿وأنْزَلْنا إليكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصدِّقاً لِما بينَ يديهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عليهِ، فاحْكُم بينَهُم بِما أنْزَلَ اللَّهُ، وَلا تَتَّبِعْ أهْواءَهُم عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولو كانَ من عندِ غيرِ اللَّهِ لَما صحَّ في العُقولِ أن يكونَ هوَ الحَقَّ المطْلَقَ،

أو يكونَ أحْسَنَ قانونٍ وتشريعٍ، مَهْما رجَحَت عُقولُ مُقنِّنيهِ، فإنَّه ما من قومٍ إلَّا ولهُم من الشَّرائعِ والقوانينِ ما يُسيِّرونَ بهِ شؤونَ حياتِهم، لٰكنَّهم لا يفتأونَ يغيِّرونَ ويُصلِحونَ، ولو وصَفوا قانونَهُم بالحقِّ المطْلَقِ لتعذَّرَ عليهِم تبديلُهُ والاستدراكُ عليهِ، وإنَّما هٰذه أوصافٌ لا تكونُ إلَّا لِما هُوَ خارجٌ عن قُدُراتِ المخلوقينَ.

﴿كِتابٌ أحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُن حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿وإنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ * لا يَأتيهِ الْباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِن خَلْفِهِ، تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤١-٤٢].

فأنزِلَ القرآنُ حينَ أنْزِلَ، وهوَ إلىٰ اليَوْم، وسيبقىٰ إلىٰ آخِرِ الدَّهْرِ، لا يجدُ النَّاسُ سبيلاً إلىٰ نَقْضِ شيءٍ من أحكامِهِ وشرائعِهِ، مهما سعىٰ الكفَّارُ والَّذينَ في قلوبِهِم مَرَضٌ لإبطالِ ما جاءَ بهِ من الحقِّ والعَدْلِ والهُدىٰ، كما لا يجدونَ سبيلاً للإتيانِ بِما هُوَ أحْسَنُ منهُ، إذْ لا أحسَنَ منهُ.

النَّوعُ الرَّابع: الإعجاز العلميُّ:

وذٰلكَ فيما بيَّنَ اللَّهُ في هٰذا الكِتابِ ودَلَّ عليهِ من الآياتِ في السَّماواتِ والأرْضِ والأنفُسِ، ممَّا لم يكن ليُحيطَ بهِ علمُ بَشَرٍ في عهْدِ النَّبيِّ ﷺ من تِلقاءِ نفْسِهِ، ثمَّ يبقىٰ النَّاسُ يكتَشفونَ أسرارَهُ في الكونِ، والقرآنُ قدْ سَبَقَ بهِ منْذُ دَهْرٍ بعيدٍ تَصريحاً وتلويحاً، كانَ يتلوهُ علىٰ النَّاسِ نبيٌّ أمِّيٌّ، لم يدْرُسْ علومَ الفَضاءِ ولا البيئةِ ولا البِحارِ ولا طَبقاتِ الأرْضِ ولا الأجنَّةِ، ليُنبِئَ

العالَمَ أنَّه رَسولُ رَبِّ العالمينَ، وأنَّ هٰذا القرآنَ من علمِ اللَّهِ الَّذي أحاطَ بكُلِّ شيءٍ.

فتأمَّل مِثالَهُ في الأنفسِ في قولِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ما لَكُم لا تَرْجونَ للَّهِ وَقاراً * وَقَد خَلَقَكُم أطْواراً﴾ [نوح: ١٣-١٤]، ثُمَّ تأمَّل تفسيرَ تلكَ الأطْوارِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ولَقَد خَلَقْنا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً، فخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً، فكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً، ثُمَّ أنْشأناهُ خَلْقاً آخَرَ، فتَبارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالقينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وتأمَّلْ مِثالَهُ في الكَوْنِ في قولِ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿أوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أنَّ السَّماواتِ والأرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما، وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ، أفَلا يُؤمِنُونَ ...﴾ الآيات [الأنبياء: ٣٠-٣٣]، أو في قولِهِ سُبْحانَه: ﴿وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ، فإذا هُم مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها، ذٰلكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ * وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّىٰ عادَ كالعُرْجُونِ القَديمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ، وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

ألَا تكفي هٰذهِ الآياتُ باحِثاً عَنِ الحَقيقَةِ ليشْهَدَ أنَّه الحقُّ من ربِّهِ؟ أتُرَىٰ يكونُ هٰذا مِن بَشَرٍ من أهْلِ مكَّةَ يأتي بهِ من تلقاءِ نفسِهِ قبلَ خمسَةَ عشرَ قرناً من الزَّمانِ؟ كلَّا، ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَديدُ القُوَىٰ﴾ [النَّجم: ٣-٥]، ﴿تِلْكَ آياتُ اللَّه نَتْلُوها عَلَيْكَ بالحَقِّ،

وإنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

والعِلْمُ الحَديثُ يَظْهَرُ على النَّاسِ بعَجائبَ في خَلْقِ اللَّهِ، فيُبْهَرُ النَّاسُ بها، وحُقَّ لَهُم، لٰكنَّ الأعجَبَ أن يكونَ القرآنُ قد نَبَّهَ على ٱعتِبارِها ودلَّ عليها منْذُ دَهْرٍ بَعيدٍ، ولم يكُن للنَّاسِ يومئذٍ من وَسائلِ النَّظَرِ والاكتِشافِ ما لأهْلِ زَمانِنا، إنَّه ٱستمرارُ شَهادَةِ الحَقِّ، أنَّ هٰذا القرآنَ من عندِ اللَّهِ:

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنْفُسِهِمْ حتَّىٰ يتبيَّنَ لهُمْ أنَّه الحقُّ، أوَلَمْ يَكْفِ بربِّكَ أنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ؟﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

﴿أوَلَمْ ينْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالأرْضِ، وَما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وأن عَسَىٰ أن يكونَ قَدِ ٱقتَرَبَ أجَلُهُم، فبأيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ أرادَ لهٰذا القرآنِ أن يكونَ حجَّتَهُ على الأمَمِ إلىٰ قيامِ السَّاعَةِ، وما كانَ ليصحَّ ذٰلكَ إلَّا والدَّليلُ على أنَّه مِن عنْدِ اللَّهِ باقٍ مستَمرٌّ، فتارةً لُغَتُهُ وفَصاحَتُهُ وتأليفُهُ ونَظْمُهُ، وتارةً عِصمتُهُ من التَّحريفِ وبقاؤهُ غضًّا طريًّا كما لو أنْزِلَ السَّاعَةَ، وتارةً ما جاءَ بهِ من القوانين والشَّرائعِ العادِلَةِ الَّتي ٱستغرَقتْ جميعَ مصالحِ العِبادِ، وتارةً ما فيهِ من التَّنبيهِ علىٰ الآياتِ الكونيَّة، والدَّلائلِ العلميَّةِ، وهٰكذا، إلىٰ براهينَ لا تنقطعُ ولا تتناهىٰ، كلُّها تَشْهَدُ أنَّه كلامُ ربِّ العالَمينَ.